مهرجان دبي

جورج هاشم «نار» الذاكرة والحرب الأهلية

فادي أبي سمرا في مشهد من «نار من نار»

دبي ــ **علي وجيه**

كما في «رصاصة طايشة» (2010 ـ المهر الذهبي لأفضل فيلم عربي في الدورة السابعة من «مهرجان دبي السينمائي الدولي»)، يستوحي اللبناني جورج هاشم مناخات الحرب الأهليّة، لنسج مثلث علاقات مأزوم بين زوجين وصديقهما المشترك في «نار من نار» Still Burning، الذي يشارك في مسابقة «المهر الطويل» ضمن الدورة 13 من «مهرجان دبي السينمائي الدولي» (العرض العالمي الأول) الذي يختتم اليوم. هذا لا يعني أنّ صاحب الروائي القصير «قدّاس عشيّة» (2009)، يقطع الطرقات نفسها، نحو قول الكثير عن هويّة بلاده وبعض ناسها، بل يتّكئ على زمن حرب ثمانيني موازٍ للحاضر، لخلق حياة مشتهاة لمن لا يمتلكها. «أندريه» (وجدي معوّض) سينمائي لبناني مقيم في باريس. يصنع روائياً أوتوبيوغرافياً بعنوان «نار»، عمّا يُفترَض أنّه عايشه خلال الحرب تحت اسم «محمد». عشيقته «نادين» أنا فيلميّة لـ«أميرة»، تلعبها الممثّلة «كاميل» (عديلة بن ديمراد). هي زوجة صديقه «وليد» (فادي أبي سمرا). الأخير يحمل اسم «إيلي» (رودريغ سليمان) في الشريط، الذي يبصر النور تحت عنوان «نار».

نحن في مطلع الألفية. يُعرَض الفيلم ضمن «بينالي السينما العربيّة» في معهد العالم العربي في باريس (توقف الحدث عام 2008)، ليظهر الصديق القديم من دون سابق إنذار. يحصل اللقاء المرتقب. نعلم أنّ سرطان الرحم أودى بأميرة، فهاجر وليد إلى مونتريال، ليرأس تحرير مجلة تعنى بالفرنكوفونيّة. المخرج يستفيد من مناخ الحريّة في فرنسا، للعمل وكسر تابوهات لن تمرّرها الرقابات العربيّة. نعم، الخريطة ليست بسيطة. بين الحاضر والماضي، وبنية «فيلم داخل فيلم»، لا يسلّم السرد مفاتيحه بسهولة. يمعن في توريط المتفرّج ضمن لعبة جنونيّة من الواقع الحقيقي والآخر المتخيّل/ المشتهى. يتحدّاه للتفريق بينهما. يدعوه إلى تفكيك كلّ منهما إلى سيرته الأولى، تمهيداً لتركيبهما كقطع البازل. ثمّة جحيم مستعر داخل النفوس، منذ أيام السهر في ملهى «فيرتيغو»، بينما يرجّ القصف بيروت المقسّمة في الخارج. لقاءات خاطفة مع عشيق، وميليشيات توقف النّاس في الشارع، عناصر تحيل على «رصاصة طايشة»، قبل أن تبتعد إلى مسارها الخاص. في «نار»، نرى «حب نادين/ أميرة» لـ«محمد/ أندريه»، ومدى اشتهائها له. نرصد الجفاء مع زوجها «إيلي/ وليد»، الذي يظهر أنانياً، خائناً، لا يمانع رؤية صديقه يُعتقَل أمام عينيه. في الحقيقة، لا شيء كما يبدو عليه. لا أحد كذلك.

لقاء الصديقين العاشقين للسينما، يفجّر الحمم. يؤكّد أنّ الحرب مستمرّة بشكل آخر. يستدرج مكاشفةً تقشعر لها الأبدان. يفرد حمولةً عن الأنا المتعدّدة والهويّة المضطربة، عن ضحايا تائهين لم يلمسوا أحلاماً

> **تحفة مظلمة عن الأنا المتعدّدة، واغتراب الفرد داخل نفسه أولاً**

تاقوا لها طويلاً، عن عاشق مرفوض يراها هانئةً في حضن زوجها المبدع (صانع أفلام وكاتب ومبرمج في النادي السينمائي). هذا يؤجّج حقداً مجاوراً لحبّ الصداقة، فيقرّر التحوّل إلى سينمائي/ خالق. يتّخذ من النيغاتيف وسيطاً خيالياً، لصنع حياة موازية عجز عن تحقيقها على الأرض (الوسيط الحقيقي)، مع تغيير سمات كلّ فرد وفق مشتهاه، بل وعقد نقصه تجاه الآخر. تزوير يذكّرنا بشيء من «السيّد ريبلي الموهوب» (1999) لأنتوني مينغيلا، مع تحوّل القتل من فعل حقيقي إلى مجاز فيلمي. هو الخطوة السابقة لمراحل المكاشفة (التجاهل ـ التحريض والاستفزاز ـ الانفجار ـ المطاردة ـ البوح في مشهد خلّاب ـ الاعتراف). «نار» شريط جاء من «نار» الذاكرة والحرب.

جورج هاشم يصنع تحفةً مظلمةً عن الأنا المتعدّدة، واغتراب الفرد داخل نفسه أولاً. يضعنا بقسوة أمام سؤال الهويّة المشروخة، ضمن بلاد حائرة، مليئة بعقد النقص. يباغتنا بمدى التهتّك الداخلي، وقابلية الحقد والكره للتغوّل والسيطرة. لا جدوى من السعي إلى الخلاص. هذه أرواح ملعونة إلى الأبد. هل ثمّة ناجٍ وحيد مثل «ربيع» في روائي فاتشي بولغورجيان، الذي ينافس على «المهر الطويل» أيضاً؟ لا.

سينماتوغرافيا كابوسية لأندرياس سينانوس، الذي عمل مع أنجيلوبولوس طويلاً. هناك درس في الاشتغال على الأبعاد والتشكيل بالضوء. أداء خلّاب عموماً، خصوصاً فادي أبي سمرا ووجدي معوّض. موسيقى زاد ملتقى تخترق النخاع الشوكي. إيقاع ثقيل يعزّز الميلانكوليا والتأزّم (توليف إلياس شاهين). المحصّلة قد تكون مهراً ثانياً لجورج هاشم، فهو أحد المرشّحين الشرسين لاقتناصه.

فاتشي بولغورجيان «ربيع» الخرائط المبعثرة

لم تغادر أسئلة الهويّة والانتماء، وهواجس ما بعد الحرب الأهليّة، السينما اللبنانية منذ أن انتهى القتال عام 1990. عشرات الأفلام حرّضت الذاكرة وفتحت الجرح بقسوة أو مراعاة، بشكل مباشر أو بالتنقيب تحت المستويات الأولى. «ربيع» Tramontane للبناني فاتشي بولغورجيان، يفعل ذلك من وجهة نظر مغايرة: كيف تبدو الأمور من عيني ضرير فاقد لهويّته؟

باكورة السينمائي اللبناني في الروائي الطويل، ينافس على «المهر الطويل» في «مهرجان دبي السينمائي الدولي» (العرض الأول في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)، واصلاً بسمعة طيّبة من «أسبوع النقاد» في «مهرجان كان السينمائي» الفائت. خرج من الكروازيت بجائزة «السكة الذهبيّة»، التي تمنحها جمعية «موظفي سكك الحديد المحبين للسينما» في موازاة المهرجان. هذا ليس الفوز الأوّل لبولغورجيان في المحفل الفرنسي. مشروع تخرّجه القصير «الطابور الخامس» (2010) نال المركز الثالث في مسابقة «سينيفونداسيون» لأفلام الطلبة، بعدما حاز منحة إنتاج من «جمعية هوليوود للصحافة الأجنبية». في سجلّ الرجل شهادة ماجستير في الفنون الجميلة من جامعة نيويورك، وتعاون مع شبكات تلفزيونية في الشرق الأوسط، وأفلام مستقلة قصيرة وتجريبية وغير روائية، منها «علي العراقي» (2008).

> **رائحة الحرائق والمجازر الجماعية تفوح مجدداً**

ربيع (بركات جبور) يعزف ضمن جوقة في قريته الشمالية. عدم قدرته على الرؤية لا تقرّبه من «الشيخ حسني» في «الكيت كات» (1991) لداود عبد السيّد، وإن كان موهوباً مثله في التعامل مع الآلة. يعيش حياةً هادئة مع أمّ مخلصة (جوليا قصّار) وخال محب (توفيق بركات). تتلقّى الفرقة دعوةً للقيام بجولة فنيّة في أوروبا، فيقدّم طلباً للحصول على جواز سفر. ينهار عالمه عندما يعلم أنّه ليس من يعتقد. هو ابن عائلة أخرى، لا يعرف عنها شيئاً. يصبح كالآلة التي أعجبته: «كمان قديم، صوته مثل الحرير، ولكن لا نعرف أصله». سريعاً، ينطلق الشاب الحائر في رحلة للبحث عن جذوره الحقيقيّة، في تجوال وجودي للتعرّف إلى الذات والكيان. هو الذي لم يغادر القرية يوماً، يقطع دروب الريف، متنقّلاً بين القرى والبيوت. يدقّ باب شيخ، ويدخل ميتماً أرمنياً.

جوليا قصّار وتوفيق بركات في الفيلم

يجالس أصدقاء خاله القدامى قرب الملّاحات، وفي المصحّات العقلية. كلّ منهم يمنحه معلومةً صغيرةً، لن تقوده سوى إلى مزيد من الحيرة والتخبّط. هذا لا يثنيه عن الدأب، مستمعاً إلى قصص الحرب وحكايا الضيع المدمّرة. يحدّثه السائق عن انقطاع الارتباط ببيت العائلة العتيق. يصارحه الشيخ: «كتير جيوش إجوا وفلّوا. ما في خراب، وما في بنايات جديدة، وما في شي». تتفتّح بصيرته على الحقيقة الآن. هذا بلد الخرائط المبعثرة والممزقة والأرواح الملعونة إلى الأبد.

رائحة الحرائق والمجازر الجماعية تفوح مجدداً، لتزكم أنفه وتزيد من غليانه الداخلي. الماضي يطلّ برأسه، كوحش أسطوري غير قابل للموت.

هذا فيلم بديع عن اغتراب الفرد داخل وطنه، عن الهويّة المشرذمة، عن التشوّه الذي يُخلَق مع المرء. مزيج بين «فيلم الطريق» و«فيلم الشخصية الواحدة»، التي تقوده في كلّ المشاهد. تسير في دائرة من النّاس والأماكن التي برع بولغورجيان في اختيارها، لتعود إلى منطلقها الأول (البيت/ القرية). بركات جبور مبهج في قدرته على حمل الشريط على كتفيه، مقدّماً أداءً خلّاباً. عدم إظهار المدينة رغم ذكرها خيار مقصود، للبقاء داخل الجغرافيا الأولى. إنّها الأصل، والأرض البكر، والسجن المطبق. إنّها المشكلة والحل في آن. ثمّة ذكاء غير انفعالي في الإدانة. الكل متورّط في العبث بهذا الـ«ربيع»، الذي يستحق النجاة والاحتفاظ بروحه. جميل أن يتصالح مع حاله ويتابع الإبداع، على عكس العالقين في أوحال الماضي.

سينماتوغرافيا (جايمس لي فيلان) تلائم الطرح المظلم ورؤية البطل، إذ تفضّل العتمة في كثير من الأحيان. المخرج يوجّه العدسة على ما يهمّه من تفاصيل أثناء الحكي، مستفيداً من تقنية النت والفلو وعدسات البانوراما. الإيقاع ثقيل، يأخذ وقته في مفاصل محدّدة (توليف: ناديا بن رشيد). الاستغراق في الزمن يشبع حالة الاغتراب والحيرة، ويؤكّد على ثبات الـ«ما في شي». موسيقى (سينتيا زافين) متقشّفة. تدخل في الوقت المناسب لتتويج ذلك. جوزيه ساراماغو لم يكتب «العمى» عن عبث، قبل أن يحوّلها فرناندو ميريليس إلى فيلم عام 2008. في هذه المنطقة من العالم، يولد الإنسان ملعوناً قابلاً للعطب والانتهاك. كيف يمكن ألّا نصاب بالعمى بعد كلّ ذلك؟

علي...